

## إهداء الكتاب

إلى روح أستاذى الإمام الشيخ محمد عبده - إلى الرجل العظيم الذى لم تقع  
عينى على مثله رجاحة عقل وسجاجة خُلق وعبقريّة ذهن وسموّ نفس وعظمة رُوح  
وهمة تناطح النجوم، وكرماً يشامخ الغيوم، وأدباً إلهياً من الطراز الأول حتى لكأنما  
نشأ فى حضانة الله - إلى الرجل كل الرجل الذى يحب معالى الأمور ولا يحب  
سفسافها:

تلذ له المروءة وهى تؤذى      ومن يعشق يلذ له الغرام  
إلى الرجل الذى لم يفزع إليه فازع ولم يستصرخه مستصرخ إلا كان الصراخ  
له، إنجاز ما أمله - إلى الرجل الذى لو مد الله فى أجله، وبقي إلى رأى ثمار  
غرسه ونتاج عمله، لكان للأديب اليوم شأن غير هذا الشأن، وحال غير تلك الحال،  
لأنه عظيم فهو يحب كل عظيم ويُمدّه ويُسبّه وقداً، ولا يحقد ولا يحسد لأن رئيس  
القوم لا يحمل الحقد...

ذهب الذين يعاش فى أكتافهم      وبقيت فى خلف كجلد الأجر

\* \* \*

عالم أشبهوا القُرود ولكن      خالفوها فى خفة الأرواح

\* \* \*

لهم حلل حسن فهن بيض      وأخلاق سمجن فهم سود

\* \* \*

أنا فى أمة تداركها الله      م غريب كصالح فى ثمود

إلى روح أستاذى الذى علمنى وربّنى وأدبى فأحسن بحمد الله تاديبى - فكنت  
خريّبج ولا فخر، وكنت غرس يديه ونعمة عين، وكما ارسل الله إلى صفيّه وخيرته  
من خلقه سيدنا محمد بن عبد الله - صلوات الله وتسليماته عليه - ملكين كريمين

سقطا عليه كسقوط الندى وهو يلعب مع اخوته من الرضاعة خلف بيوت ظئره، رضوان الله عليها، فأضجعاه فاستخرجا قلبه فشقاه فتناوشا منه علقة سوداء ثم غسل قلبه بثلجهما السماوى حتى أنقياه، وكان ذلك كمدرجة لمقام النبوة ومهمة الرسالة العظمى - أرسل الله إلينا هذا الإمام، وطلع علينا كما يطلع البدر فى دجنات الظلام ونحن فى الأزهر نتمسف الطريق، ونتقحم تلك الجرائم فهدى من ضلالة، وأنار من ظلمة، وانتاشنا من مضيق ومُرتطم، وأقامنا على المناهج النيرة، والمحاج الواضحة وغسل عقولنا حتى أنقى أدرانها، ثم فاض علينا فيض علمه وأدبه.

فإلى روح هذا الإمام أهدي هذا الكتاب.

عبد الرحمن البرقرقى

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حامداً ومصلياً

«أما بعد» فهذا كتاب وضعته قديماً وأسميته «حضارة العرب في الأندلس» ولقد أشرب قلبي منذ طراءة العمر وريعان الصبي وجن النشاط حب التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ هذا الفرع الأندلسي منه خاصة - فكان مما عنيت به فضل عناية، وكان مما أولعت به الولوع كله، النظر في تاريخ الأندلس وحضارة العرب بها منذ افتتاحهم إياها إلى أن تأذن الله لهم، وكتب عليهم الأسبانيون، وكلح لهم الدهر وجهه، وتقلصت ظلال تلك الحضارة بعد أن فاء بها الفناء على شرق الأرض وغربها - وبلغ من همي بهذا التاريخ أنني بعد أن استوعبت كل ما وصل إلينا من تأليف العرب ذهبت أتلمس ما كتبه مؤرخو الغرب ومستشرقوه على ذلك المصر حتى اقتنيت أمهات أسفارهم وعهدت إلى كثير من أصدقائي الذين يحسنون الفرنسية والانكليزية أن ينقلوا إليّ كل ما يتصل بغرضي من مباحث هاتيك الكتب، ومضيت في ذلك ومضوا فيه حتى استجمعت الكثير وما يزيد على الكثير، ثم خطر الدهر من خطراته ونشأت ظروف أواخر سنة ١٩١٠ ميلادية أي قبيل إخراج «البيان» اضطررتني أن أزيل القاهرة وأقيم في بلدي - مسقط الرأس، ومكان الغراس، فأفسح لي ذلك في الوقت، ومد لي في النظر، وبسط في مطارح التأمل، وأنسى لأتقري يوماً تاريخ أبي الفداء إذ صدف أن أخذت عيني هذا الخبر الذي لا حفل له، والذي يفتحني في العادة النظر، ولا يكاد يتلفت إليه، أو يتوقف عليه، وهو ما رواه من «أنه في سنة ٣٤٥ هجرية عمل عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس مركبا كبيرا وحشد فيه كثيراً من بضائع الأندلس وأرسله إلى بلاد المشرق لتباع هذه البضائع هناك وتستبدل منها بضائع مشرقية» ففتحت على هذه

العبارة أبواباً من وراء أبواب، وامتدت الكلمة فى نفسى حتى خرج من حروفها كتاب، وألهمت أن أضع ما جمعت من علم الاندلس كله فى صدر رحالة مصرى يقوم من الاسكندرية وافداً إلى الاندلس فى مركب الناصر هذا - فهو يرى ويسمع ويقص ويدون ويصف ويستعين بما يعلمه وما يراه وما يفتق له الخاطر ويهسى الفكر - فى رسائل يضمنها وصف تلك الحضارة على اختلاف ألوانها، وشئى فنونها، وصف مؤرخ أديب فيلسوف يرحل للتاريخ وفلسفته فيدرسه فى كتبه وفى مواضعه ورجاله وأسبابه وحوادثه، وبذلك يستجمعه من أطرافه، ويحويه من أكتافه، وتم التقدير على أن أضع على لسان هذا الرحالة الذى ذهب إلى الاندلس وأقام فيها زهاء عشرين عاماً خمس رسائل يكون عنوان الأولى «من الاسكندرية إلى المرية» والثانية «من المرية إلى قرطبة» والثالثة «مقامى فى قرطبة» والرابعة «العلوم والآداب والفنون فى الاندلس» والخامسة «تقويم الاندلس وتاريخها»... وهو يديهى أنه لا يقدم على هذا العمل مقدم إلا بعد أن يحيط بتاريخ هذا العصر علماً، ويقتله كله دراية وفهماً، فليس يكفيه أن يكون ملماً بتاريخ الاندلس، ولا بتاريخ الدول الإسلامية لهذا العهد، بل لا بد مع ذلك من أن يكون واقفاً على تاريخ الأمم الأخرى المعاصرة، والتي لها علاقة بالدول الإسلامية إذ ذاك مثل الدولة الرومانية وما إليها، وكذلك درست تاريخ هذا العصر من جميع نواحيه، ثم وضعت يدي فى هذا العمل، وأخذت فى كتابة هذه الرسائل ومضيت لطيتى حتى إذا سرت شيئاً طراً على ما أجهاني إلى القاهرة وفى تلك الآونة طلع «البيان» وطفقت أنشر فيه نبذاً من هذا الكتاب، وكان المنتظر أن يكون «البيان» بحيث يغرى باتمام الكتاب ونشره كله بين صفحات هذه السنوات التى خلت، ولكن جاء الأمر على حد ما قيل: طلبت بك الكثير فازددت قلة، فلقد استبد بى هذا البيان، واستأثر على بنفسي استشاراً، وتدقق فى أذاته، وألح فى سطواته، حتى إنه بعد أن

التهم الوفر أكلا وشربا، ألوى بنفسى<sup>(١)</sup> قلبًا ولبًا، وتركنى لا أفكر إلا فيه ولا أتشاغل إلا به:

فلو أن لى تسمعين قلبًا تشاغلتي

جميعًا فلم يفزع إلى غيره قلب

وكذا مصير كل من يمتهن الأدب فى الصحف وبخاصة إذا كان هو صاحب تلك الصحيفة له غنمها وعليه غرمها، ببلد سقط فيه نجم الآداب الرفيعة وطاش سهمها، وقدا قيل لحكيم إن فلانا رجل عاقل فقال: هل هو متزوج فقيل له نعم فقال: إذن ذهب عقله؛ وعلى هذا القياس لو قيل لى إن فلانا فيلسوف أو عالم أو أديب لقلت هل هو صاحب مجلة فى مصر فإذا قيل نعم قلت إذن ذهب والله فى الذاهيين، فإنه إذا كان المتزوج يجد من هم واحدة وما يكون منها ما لا يدعه لهم نفسه فيذهب بذلك عقله أو بعض عقله فإن صاحب المجلة يصيبه هم المئات إلى الآلاف ممن يقرءون ولا يفون بحق ولا عهد فهو ينفق من نفسه وما أعدده لنفسه وهم بمحقونه محققًا حتى ينقص بهم على زيادتهم ويقل على كثرتهم ولا يزال ذلك شأنهم وشأنه لا هو يتركهم وعليهم حقه ولا هم يدعونه فى غير هذه الحالة، وبذلك يذهبون بفلسفته وعلمه وأدبه مذاهب العقم، ويبلونه بالاغتمام، ولا عقل مع غم، ولا قلب مع هم، فذهب إذن والله صاحب المجلة وكان من ضياع العقل فى وزن من تزوج لا بزوجة واحدة بل بألف زوجة.

\* \* \*

«وبعد» فهذا هذا - وفى هذه الآونة - فى هذه الفترة التى احتجب فيها البيان، والتى وجدت فيها نفسى - جرى بينى وبين أحد أفاضلنا يوما حديث أفضى إلى ذكر هذا الكتاب، وأنست من هذا الفاضل رغبة حارة صادقة فى تمامه، وطبع ما تم منه إلى الآن فى الأقل على حدة، فكان جواب الفعل أسبق من جواب القول،

(١) يعنى استبد بها.

وقدمت هاتين الرسالتين إلى المطبعة على أن أردفهما قريباً إن شاء الله بالرسائل الثلاث الباقية، وهاتان الرسالتان يكادان يكونان كتاباً مستقلاً، يصح أن ينزلا من الرسائل التالية منزلة مدخل الكتاب من الكتاب.

والآن بجمل بنا أن نقدم بين يدي الناظر في كتابنا هذا تنبيهات يخلق به أن يلحظها ويتنبه عليها وإليكها:

### - ١ -

يلحظ قارئ هذه الرسائل في بعض المواطن شيئاً يشبه أن يكون خشواً أو زيادة أو فضولاً أو شططاً أو خروجاً عن الموضوع أو ما شئت سمه، وذلك مثال كلامنا على الخمر «انظر صفحة ٥٤» وكلامنا على حب الوطن «صفحة ٧٦» فليعلم القارئ أننا لو قصرنا كلامنا في هذه الرسائل على البحث التاريخي البحت دون تطربتها بمثل هذه المعاني الغضة اللينة المستطرفة التي تستروح إليها النفوس، وتريح على القارئ عازب نشاطه<sup>(١)</sup> لجاءت كزة جافة ثقيلة مملة، وليس للكاتب اليوم في أى باب من أبواب العلم والأدب متدح عن أن يداور القارئ على القراءة ويراوغه<sup>(٢)</sup> ويحتال بكل ضروب الحيل التي تغريه بالقراءة وتشوقه إلى الاطلاع ما دامت الرؤوس كأن بها خبالاً، والنفوس كأن بها دائماً ملالاً على أنه إذا كان الغرض الذي نترامى فيه<sup>(٣)</sup> بهذه الرسائل هو وصف حضارة العرب فلماذا لا نهتبل هذه الفرصة ونتصدى - ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً - لكل معنى من معاني هذه الحضارة ومبلغ ما وصل إليه العرب في هذا المعنى، ومن ثم لم نتعرض لمثل ما تعرضنا عبثاً، وإنما لنصف لك كل ألوان الحضارة العربية على اختلافها أولاً وبالذات، ولننفي عن القارئ ما عساه يلم بساحته من السأم والملال ثانياً وبالعرض.

(١) تريح ترجع وتعيد وعازب غائب.

(٢) داووه على كذا وراووه أراداه عليه.

(٣) كقولهم اليوم نرمى إليه.

## ■ ٢ ■

قد يلمح القارئ من أسلوب هذه الرسائل وطريقة الوصف والتفكير فيها مسحة من روح جيلنا، ويراها مصطبغة بصبغة عصرنا، وهذا وإن لم يكن في مكتنا اجتنابه لأننا ضرورة كوننا من أبناء هذا الجيل وامتزاج روحه منا بالدم واللحم لا نستطيع الخروج عن كياننا، إلا أنه مع ذلك نكاد نكون قد قصدنا إليه قصداً لأنه يدخل في باب التطرية التي لا بد منها نفياً للملل الذي قد يعرو القارئ إذا نحن توخينا أسلوب تلكم العصور توخياً تاماً، ولأنه لولا ذلك لما كان ثمت فرق بين هذه الرحلة وبين رحلة قديمة يضعها رحالة حقيقي في هاتيك العصور، بيد أننا مع ذلك قد احتفظنا جهد الاستطاعة باصطلاحات العرب في أسماء الأعلام والبلدان والاقطار والممالك وما إلى ذلك مع قرننها بإسمائها التي تعرف بها اليوم إما في هامش الرسائل وإما في صلبها بين الأقواس.

## ■ ٣ ■

كل ما كان لغيرنا ونقلناه بلاطة أو بحرفنا منبهنا إليه في هامش الكتاب ومن ثم يكون كل ما لم ننسج إليه مصدره فهو لنا معنى ولفظاً، اللهم إلا ما نتمثل به من بيت مشهور أو مثل سائر أو أبيات قد عُرِفَ قائلها، على أننا إذا كنا في موضع تاريخي أو وصف جغرافي قد نبهنا إلى المصدر الذي اعتمدنا عليه ففي الغالب الكثير تكون العبارة لنا وإنما لغيرنا هو العصاراة التاريخية أو الجغرافية وما إليهما، وقد نسهو عن التنبيه إلى المصدر إما لأننا لم نقيده ما ننقل حين النقل فلم نهجد إلى موضعه بعد ذلك وإما لأن ما ننقله من غيرنا إنما نقلناه بواسطة حافظتنا.

## ■ ٤ ■

قد نتمثل في بعض الأحيان بيت أو أبيات تأخرت أوقات قائلها عن زمن

الرحلة مثل تمثلنا بأبيات لابن خفاجة أو لابن حمد يس مثلاً ونحن فانا لا نرى بأساً  
فى ذلك ما دامت هاتيك الأزمان متقاربة متشاكلة وحسبنا التنبيه إلى ذلك فى هامش  
الكتاب.

\* \* \*

«أما بعد» فيرحم الله عمرو بن بحر إذ يقول: لا يزال المرء فى فسحة من عقله  
ما لم يقل شعراً أو يؤلف كتاباً - ويرحم الله القائل: عرض بنات الصلب على  
الخطاب، أهون من عرض بنات الصدر على ذوى الألباب...

فإذا كنت قد وفقت أو قاربت التوفيق فى هذا الكتاب وإلا فحسبى أنى لا آلو  
جهداً ولا أدخر وسعاً، وأنى أخلص النية وأراقب الله فى كل ما أعمل، على أنه لا  
كمال فى الأرض وإنما الكمال لله وحده، وإليه سبحانه الرغبة فى أن يحوط كل ما  
أعمل بكلاءته، وأن يغشيه دائماً بالقبول إنه سميع الدعاء.

عبد الرحمن البرقوفى